

كلية تنكر المقدسية
في العصر المملوكي
٦٤٨ - ١٢٣٣ هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

د. علي السيد علي
جمهورية مصر العربية

2011

إن تراثنا العربي الإسلامي في مدينة القدس تراث نفيس وعميق ، وغال ، وأن المبادرة لإنقاذ هذا التراث في أيام محنة القدس يبرهن على أن محبة القدس لا يمكن أن تكون كاملة إلا إذا عرفنا ، وبادرنا تحت كل الظروف لإنقاذ هذا التراث ورعايته ، وهي ضرورة ملحة لا تحتل المزيد من التأجيل أو الانتظار .

وليس صحيحاً الرأي القائل أن العمل لإنقاذ التراث لا يمكن أن يتم إلا بعد الإنقاذ السياسي وبعد التحرير . لأن الإنقاذ السياسي يحتاج إلى وقت ، والانتظار إلى التحرير ربما يؤدي إلى زوال المدارس أو الكليات الجامعية الصغيرة والكبيرة في مدينة بيت المقدس ، وهي من أبرز المعالم الثقافية العربية الإسلامية في المدينة . ولذلك فإنه لا مجال أبداً للانتظار ، ولا بد من أن تتضافر جهود الدول العربية ، ورجال المال و الثقافة والعلم لعمل أي شئ ممكن الآن ، ولئن نضئ شمعة واحدة خير من أن نلعن الظلام .

كما علينا أن نتذكر أن القدس الآن هي مركز تحد حضاري وثقافي كبير لنا في وقت يدور حولها صراع رهيب ، وكما دار من قبل إلى أن سخر الله تعالى لها صلاح الدين الأيوبي ليستردها إلى أحضان الأمة العربية الإسلامية عام ٥٨٣هـ / ١١٨٧م من أيدي الغزاة الصليبيين . وجل ما نتمناه أن تساهم هذه الدراسة في إثارة الاهتمام ولفت الأنظار إلى التراث العربي الإسلامي ، والمهدد أكثر من أي وقت مضى في مدينة بيت المقدس ، وفي حث كل من يعنيه الأمر في ميدانه ، وفي نطاق اختصاصه لإنقاذ هذا التراث قبل فوات الأوان ، وهو ما يراهن عليه قادة العدو الإسرائيلي .

ولقد تكاثفت عوامل الأمن ، والاستقرار ، والثراء ، ونشاط الحياة العلمية في عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م ليظهر أثرها واضحاً في ازدهار كبير في الحياة العلمية والدينية في مدينة المقدس ، وكان للمنشآت التعليمية حظ كبير في هذه الحركة ، إذ شيد سلاطين المماليك وأمراؤهم منها في بيت المقدس الكثير ، لدرجة أن مؤرخ القدس الشهير وهو مجير الدين الحنبلي ، والذي توفي عام ٩٢٧هـ وهو أحد أبناء بيت المقدس ، وكان معاصراً للفترة الأخيرة من حكم سلاطين المماليك والذي تميزت كتاباته بعدم التصنع ، أي أنه لم يكتب حباً في استجلاب الرضا عند سلطان أو أمير ، كما لم تكن كتاباته ذيولاً وتكملات لكتب سبقته زمنياً . فقد كتب يعدد لنا أكثر من أربعين مدرسة أي - كلية جامعية - وكما سنظهر

ذلك فيما بعد - في بيت المقدس ، وأكثر من عشرين زاوية ، فضلاً عن مكاتب (كتابات) الأطفال والمساجد^١ .

بل وتشير بعض المراجع إلى أن المشاهد والترب اتخذت كمؤسسات تعليمية ، حيث رتب بها منشؤها المدرسين والطلبة ، مثال ذلك التربة الطازية التي تقع بجوار المسجد الأقصى من ناحية الغرب ، وقفها الأمر طاز المتوفى سنة ٧٦٣هـ / ١٣٦٢م وألصق على واجهتها نقشاً جاء فيه : " بسم الله الرحمن الرحيم ، تربة العبد الفقير إلى الله تعالى المقر الأشرف السيفي طاز توفي إلى رحمة الله سنة ثلاث وستين وسبعمائة^٢ ، وقد أطلق مجير الدين الحنبلي على هذه التربة لفظ المدرسة لاشتهارها بالتعليم ، وقد درس فيها جماعة من الشافعية أكثرهم من آل القلقشندي وهي أسرة شهيرة بالقدس^٣ . ويمكننا أن نلحق بتلك المؤسسات التعليمية مجالس العلماء ورجال الأدب الذين اعتادوا أن يعقدوها في منازلهم ، أو في منازل الحكام أو في أي مكان آخر ، وتزويد المترددين عليها بأنواع العلوم والمعارف وبشكل لا يقل عن المؤسسات التعليمية السابقة ، وقد كثرت هذه المجالس في ذلك العصر حتى قيل إن كل أمير اعتاد أن يختار محدثاً يذيع للناس الأحاديث النبوية في منزله ، وهي أكثر من أن تحصي^٤ .

ومنهم من خصص درساً للميعاد ، أي درساً للوعظ والإرشاد في أحد مساجد القدس الكبرى ، مثل المسجد الأقصى ، أو مسجد قبة الصخرة^٥ .

أما عن المدرسة التنكزية فهي إحدى مدارس العصر المملوكي في مدينة بيت المقدس أو إحدى الكليات الجامعية في ذلك الوقت بمفهوم عصرنا الحاضر ، لما بها من إيونات أي قاعات مختلفة لتدريس العلوم بوجه عام ، وعلوم أصول الدين بوجه خاص ، ومنها القرآن الكريم وعلومه ، والحديث النبوي الشريف وعلومه ، والفقه السني بوجه عام ، والفقه الحنفي خاصة ، والتصوف ، ويطلق عليها اسم التنكزية نسبة إلى الأمير سيف الدين أبي سعيد تنكز بن عبد الله الناصري ، نائب السلطنة بالشام . وقد كان تنكز من أركان دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى السلطنة ثلاث مرات ، الأولى سنة ٦٩٣هـ ، والثانية من سنة ٦٩٨ إلى سنة ٧٠٨هـ ، والثالثة من سنة ٧٠٩ إلى سنة ٧٤١هـ وكانت تولية الأمير تنكز لنيابة الشام وعاصمتها دمشق في سلطنة الناصر الثالثة من سنة ٧١٢ إلى سنة ٧٤٠هـ ، حيث غضب السلطان عليه وقبض عليه ونفاه إلى الإسكندرية حيث تم التخلص منه . وقد بلغت ثروته التي أمكن حصرها أكثر من ١٥ مليوناً من الدراهم الفضة ، مما جعله ينفق ببذخ على منشأته في بلاد الشام ، منها في دمشق على سبيل المثال لا الحصر دار القرآن والحديث التنكزية ، وهي شرقي حمام نور الدين الشهيد بسوق البزورية وتجاه دار الذهب ، وكانت في غاية الحسن

ليس في دمشق داراً أحسن منها^٦. وعمر بدمشق الجامع المعروف به بحكر السماق أو شارع النصر الآن، وأنشأ إلى جانبه تربة وحماماً، وعمر تربة إلى جانب الخواصين لزوجته. وعمر بصفد البيمارستان أي المستشفى المعروفة به وخاناً عظيماً وغيره. وله بالقاهرة في الكافوري دار عظيمة وحمام وحوانيت وغير ذلك، وجدد في دمشق وغيرها المساجد والمدارس، ووسع الطرقات بها وأعتنى بأمرها. وله في سائر بلاد الشام آثار وأملاك وعمائر^٧.

كان تنكز من كبار العمرانيين ومن أشهر نواب السلاطين الذين حكموا الشام في عصر سلاطين المماليك، وله مآثر عمرانية كثيرة في القدس. ومنها سوق القطانين وبوابته الشهيرة والحمامان الكائنان فيه والخان القائم في وسطه. ومنها ترميم المسجد الأقصى وتعمير قناة السبيل التي كانت تأتي بالماء إلى القدس الشريف من عين العروب وبرك سليمان، ومنها إنشاء المدرسة الشهيرة المعروفة بالتكزية. وبالنسبة لأعمال التعمير والإنشاء الواسعة التي قام بها الأمير تنكز في القدس فإن اسمه سيظل مقترناً باسم القدس بوصفه واحداً من أعظم الحكام المسلمين الذين اهتموا اهتماماً خاصاً بالمدينة^٨.

ومن المعروف أن النشاط الديني والعلمي في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كان يتكاثف قرب الخلافة أينما حلت. كذلك من المعروف أن اهتمام سلاطين وأمراء المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم، لأنهم كانوا مجرحين بسبب أصلهم غير الحر، فكان هذا هو الدافع الرئيسي لهم على إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة عام ٦٥٩هـ / ١٢٦١م بعد سقوط بغداد في أيدي المغول وقتلهم الخليفة العباسي سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م. كما كانت الحياة في مدينة بيت المقدس أطيب نسيباً، فضلاً عن وقوعها داخل دائرة النشاط الحضاري للدولة الإسلامية حينئذ، كذلك كان لها عشاقها الكثيرون وخاصة بعد تلك الغيبة الطويلة التي انتزعت فيها من أحضان الدولة الإسلامية في ظل الحكم الصليبي منذ عام ٤٩٣ - ٥٨٣هـ / ١٠٩٩ - ١١٨٧م حتى استرجعها السلطان صلاح الدين الأيوبي، كما كانت لها جاذبيتها الخاصة في عيون المسلمين مثلها مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة، فلقد ظلت في الوجدان الإسلامي بكونها أولى القبلتين وثالث الحرمين، فضلاً عن ارتباطها بقصة الإسراء والمعراج، وتلك الجاذبية الخاصة التي تتضح أشد الوضوح عند مثقفي ذلك الزمان، ولاسيما من تخصص منهم في العلوم الدينية وأنها غدت في عصر سلاطين المماليك إحدى المراكز العلمية الهامة، وقبله العلماء وطلاب العلم والمعرفة، الذين فضلوا الإقامة فيها على العاصمة^٩. مما كان له أكبر الأثر في كثرة المنشآت التعليمية والخيرية والاجتماعية في بيت المقدس، وكان للمؤسسات التعليمية ومنها المدرسة التكزية الحظ الأكبر من هذه المنشآت إذ شيد سلاطين المماليك

وأمرأؤهم الكثير منها في القدس بحيث زادت عن أربعين مدرسة أو كلية جامعية ما بين صغيرة وكبيرة^{١٠}. في مدينة لا يزيد محيطها بحال من الأحوال عن أربعة أميال ، بل ربما يقل عن ذلك مما جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبة للفكر الإسلامي في ذلك العصر^{١١}.

أما عن المدارس أو الكليات الجامعية كمؤسسات تعليمية ، حيث لم تكن هناك مدارس ثانوية وكما هو في عصرنا الحالي ، فمن المعروف أن المدرسة أقيمت في العصر المملوكي لتؤدي وظيفة تعليمية ، وبالرغم من ذلك فقد أقيمت بها الشعائر الدينية ، واتخذت كمساجد أو ألحقت بها المساجد لتقام فيها الصلوات المفروضة ، وصلاة الجمعة والعديد ، وبذلك كانت أقرب ما يكون بالمسجد إلا أنها تميزت عن المسجد بمساكن الطلبة التي كانت عادة ما تلحق بالمدرسة ليعيش فيها الطلاب والمدرسون والمعيدون وغيرهم من بعض موظفي المدرسة ، كذلك جرت العادة أن يكون بها مدفن واقفها حتى لو توفي بمدينة غير مدينة بيت المقدس^{١٢}. هذا وقد حرص كثير من الواقفين على الدفن بمدارسهم التي بنوها لكي يحضوا بثواب قراءة القرآن الكريم والفاحة على أرواحهم من الطلبة حيث كان ينص على ذلك في شروط الوقف^{١٣}.

تصميم المدرسة :

وكان تصميم المدرسة في العصر المملوكي يختلف من مدرسة لأخرى ، إلا أنه في الغالب كان يمثل أربعة أواوين متعامدة متقابلة أكبرها إيوان المحراب أو إيوان القبلة وأصغرهما الأيوانان الجانبيان ، ويتوسطهما في الغالب صحن مكشوف فيه قبة الفسقية ، وعادة ما كان يلحق بالمدرسة مدفن المنشئ تعلوه قبة أيضاً ، وسبيل يعلوه مكتب لتعليم الأيتام هذا عدا مساكن للطلبة والمدرسين^{١٤}. ولكل مذهب من المذاهب الأربعة إيوان مستقل عن أماكن المذاهب الأخرى ، مثال ذلك المدرسة الطشتمرية على طريق باب السلسلة وعند ملتقى هذا الطريق بطريق حارة الشرف ، والتي أمر بإنشائها المقر الأشرف السيضي طشتمر العلائي بتاريخ سنة أربع وثمانين وسبعمائة^{١٥}. وهي ذات تصميم متعامد يتألف من إيوانات أربعة متعامدة على صحن أوسط وأكبر هذه الإيوانات هو الإيوان الجنوبي الذي يتصدر القبلة وفيه محراب^{١٦}. المدرسة البلدية أو مدرسة منكلي بغا نسبة إلى واقفها الأمير سيف الدين منكلي بغا بن عبد الله الأحمدى البلدي الذي توفي في جمادى الآخرة سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة. وهي ذات أربعة أواوين كبعض مدارس القدس الأخرى^{١٧}.

ومن المدارس في بيت المقدس ما كان تصميمه يشتمل على إيوانين لتدريس مذهبين فقط من المذاهب الأربعة ، أمثال المدرسة المزهرية بباب الحديد ، ولها مجمع على أروقة المسجد الأقصى ، وكان الفراغ من بنائها سنة ٨٨٥هـ في عهد السلطان الأشرف قايتباي^{١٨} .

أما واقفها فهو زين الدين أبو بكر محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الدمشقي الذي توفي في يوم الخميس سادس رمضان سنة ٨٩٣هـ^{١٩} .

ومن مدارس بيت المقدس ما كان تصميمها قاصراً على إيوان واحد لتدريس علم بذاته ، مثل مدرسة دار الحديث ، وهي مدرسة بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب ، واقفها هو الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين الهكاري ، وتاريخ وقفها في الخامس والعشرين من رجب سنة ست وستين وستمائة ، وكذلك دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث ، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر بن أبي القاسم السلامي ، وتاريخ وقفها في العشرين من ربيع الآخر سنة إحدى وستين وسبعمائة للهجرة النبوية^{٢٠} .

المدرسة كلية جامعية :

وتفيدنا وثيقة الوقف المثبتة في السجل رقم ٩٢ المؤرخة سنة ١٠٢٠هـ من سجلات المحكمة الشرعية في القدس بأن هذه المدرسة وهي المدرسة التنكزية كانت كلية جامعية كغيرها من مدارس ذلك الزمان ، ومخصصة لدراسة علوم القرآن الكريم ، والفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان ، وعلم الحديث النبوي الشريف والتصوف حيث جاء فيها النص التالي :

" فأما المدرسة المبدأ ذكرها وما بها من الأبنية سفلاً وعلواً فقد وقف الواقف المسمى ذلك تقبل الله منه وقفاً صحيحاً شرعياً على الفقهاء الحنفية والمحدثين والصوفية^{٢١} .

ومما يؤكد أنها كانت كلية جامعية ما جاء في الوثيقة من أن بها ما يشبه المدن الجامعية الحديثة من حيث وجود سكن للطلاب ، حيث تم النص في الوثيقة على أن الطلبة من الصوفية وطلاب الفقه والحديث النبوي الشريف : " عليهم المبيت بالمدرسة المذكورة على جاري العادة^{٢٢} .

وفي موضع آخر جاء التأكيد بأنها مدينة جامعية مزودة بكل ما يحتاج الطلاب والمدرسون إليه ، حيث تمت الإشارة في النص إلى أن : " وبهذه المدرسة مطبخ برسم المرتبين بهذه المدرسة " وكذلك " ولهذه المدرسة طهارة تشتمل على خمسة بيوت مبنية بالحجارة النحيت والكلس واحدها مستحم " وكذلك القول بأن " جميع أوواين هذه المدرسة المذكورة مبلطة بالبلاط الأبيض^{٢٣} " ، كما أوضحت وثيقة الوقف تزويدها بالمياه اللازمة لحاجة نازليها

فقالت: " وفي وسط هذه المدرسة المذكورة بركة مثمّنة يجرى لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم من معلم مشترك ينقسم مأؤه بين جهات الحرم الشريف وبين هذه المدرسة المذكورة من الفرع المساق من قناة العروب بحق واجب معلوم " وفي موضع آخر تذكر ما لا يدع مجالاً لأي شك بأن بها مدينة جامعية فتقول: " وفي هذه المدرسة المذكورة أحد عشر بيتاً برسم الفقهاء الحنفية الآتي ذكرهم ، منها بيت برسم بواب المدرسة المذكورة والباقي في علو المدرسة المذكورة وهو أحد عشر بيتاً ولكل بيت منها باب خاص مكبر وعلى ظهره بوابة المدرسة المذكورة طبقة ذات منافع ومرافق ومرافق شرقي وغربي ، وسقفها خشبي ولها طاقات مطلة إلى جهة الشمال وشبابيك حديد ولها مرتفق خاص وعلى ظهر بيتين من بيوت العلو المقدم ذكرها طبقة بسقف خشب لها طاقات مطلة إلى جهة القبلة ومنافع ومرتفق خاص ويصعد إلى ذلك وإلى المسجد الآتي ذكره من السلم الحجر ^{٢٤} "

وعن الصرف الصحي لها تذكر الوثيقة أن " فايض مياهه وأوساخ مرتفقاته تتصرف إلى قناة الوسخ التي استجدها الواقف المسمى بحق واجب " ^{٢٥} .

ومن الجدير بالذكر أن أمثال هذه الكلية الجامعية لم تكن شيئاً جديداً حدث في العصر المملوكي ، بل إنه من المعروف أنها ظهرت منذ أواخر العصر الأيوبي . عندما بدأ إنشاء المدرسة الرباعية ، أو ما يمكن أن نسميه كلية جامعية ذات أقسام أربع ، وأعني بذلك إنشاء المدرسة الصالحية التي أنشأها السلطان الصالح أيوب ، وجعل فيها لأول مره في مصر دروساً للمذاهب الأربعة ، فقد أنشأها على هيئة أربعة أواوين متعامدة في وسطها صحن مكشوف ، وخصص كل إيوان لمذهب من المذاهب السنية الأربعة ^{٢٦} . وهذا الطراز من المدارس هو الذي انتشر في العصر المملوكي ، وجرت العادة أن يحدد الواقف مكاناً لكل درس ^{٢٧} .

التهوية والإضاءة:

وإذا كنا في كلياتنا الجامعية الحديثة نحرص كل الحرص على أفضل سبل التهوية ، والإضاءة الجيدة ، فإن أسلافنا قد سبقونا إلى ذلك منذ أمد بعيد ، وأكبر دليل على ذلك ما نراه في المدرسة التنكزية من أن صحن هذه المدرسة كان مكشوقاً وبه نافورة وحوض ماء ، وأن الهدف من جعله مكشوقاً هو تزويد الأروقة المطلة عليه الأربعة بالهواء والضوء ، إلى جانب أن كل رواق كان يطل عليه من جهة ، ففي الجهة الأخرى ، كان مزوداً بعدد من الشبابيك التي

تيسر لأي رواق منها التمتع بالتهوية الجيدة ، والإضاءة الجيدة . وقد جاء في نص الوقفية ما يفيد ذلك ، ففي حديثه عن أوأوين المدرسة يذكر النص : " وتشمل هذه المدرسة المذكورة على أربعة أوأوين . في كل واحد منها شباك حديد مطل على حارة المغاربة . وفي الإيوان الشرقي من هذه المدرسة المذكورة اثنان وعشرون بيتاً . لها طاقات مطلة إلى جهة الشمال وشبابيك حديد " ٢٨ .

كل هذه الفتحات والشبابيك لتوفير التهوية الجيدة والإضاءة الطبيعية ، أما الإضاءة بالليل أي الإضاءة الصناعية ، وحيث أنهم لم يكونوا يعرفون المصابيح الكهربائية في ذلك العصر ، فقد استخدموا الشموع والقناديل التي تسرج بالزيت . وفي نص الوثيقة اهتمام بالغ بذلك ، فقد نصت الوثيقة أن على الناظر على الوقف أن يعمل على فرش المبنى " بالحصر والبسط وتنوير ذلك جميعه على العادة في مثل ذلك كله وبيتاع في كل سنة بخمسين درهماً فضة من المتعامل بها شمعاً برسم صلاة التراويح وبخوراً من الطيب يبخر به المسجد الذي هو الإيوان القبلي للمدرسة . وبيتاع أيضاً شمعاً عند قراءة القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلاة الصبح في كل يوم من الأيام في الإيوان الشرقي من المدرسة بقدر ما يحتاج إليه ذلك " ٢٩ .

وإذا كان الطعام للطلبة والمدرسين كان يأتيهم بعد إعداده في مطبخ المدرسة ، ومع ذلك كان يتم صرف مقادير من زيت الزيتون لهم ، نذكر منها على سبيل المثال أن شيخ الصوفية كان يصرف ثلث رطل من زيت الزيتون شهرياً ، وأن كل واحد من طلبة التصوف كان يصرف سدس رطل من زيت الزيتون ، وعلى هذا فإننا نرجح أن تكون مقادير هذا الزيت ليس للأكل وإعداد الطعام الذي يأتي جاهزاً ، وإنما كان لإضاءة كل شخص منهم غرفته إذا لزم الأمر كما جاء النص ليفيد أن صرف مثل هذا الزيت لم يكن قاصراً على جماعة بعينها وإنما كان " على قوم بعد قوم وأنفار بعد أنفار أبداً ما أمكن الصرف " ٣٠ .

أماكن وجود هذه المدارس :

ومما يلفت النظر حقاً في مدارس بيت المقدس في ذلك العصر ألا وهو العصر المملوكي الذي امتد ما يقرب من الثلاثة قرون ، أنها كلها تركزت وبشكل واضح جداً في مكان واحد حول الحرم القدسي الشريف أو بداخله ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر المدرسة التنكزية أو كلية الأمير سيف الدين تنكز الناصري والتي لها برج راكب على الأروقة الغربية في المسجد الأقصى ، والمدرسة الفارسية بداخل المسجد الأقصى ، والمدرسة النحوية على طرف صحن

الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب ، والمدرسة الناصرية على برج باب الرحمة ، والمدرسة البلدية بباب السكينة بجوار باب السلسلة ، وبجوارها المدرسة الأشرفية قايتباي داخل المسجد الأقصى بالغرب من باب السلسلة ، والمدرسة العثمانية بباب المتوضأ ، والمدرسة الخاتونية بباب الحديد ، والمدرسة الأرغونية بباب الحديد أحد أبواب المسجد الأقصى ، والذي كان يعرف قديماً بباب أرغون ، والمدرسة الجوهريّة بباب الحديد ، والمدرسة الدويدارية بباب شرف الأنبياء حيث صلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ، هذه المدرسة هي التي سمي باب المسجد الأقصى بسببها بباب الدويدارية ^{٣١} .

ولعل السبب في تركيز هذه المنشآت التعليمية بل وغيرها من المنشآت الإسلامية الخيرية والاجتماعية والاقتصادية راجع إلى طبيعة مدينة بيت المقدس الدينية بما حوته من أديان مختلفة ، يهودية ، ومسيحية ، وإسلامية ، وحرص حكام المسلمين منذ قديم الزمان وكذلك سلاطين وأمراء الممالك وكذلك أهل الخير والثروة والجاه من الواقفين على أن يجعلوا من تلك المنطقة مجعماً ضخماً بما يشتمل عليه الحرم القدسي الشريف ، وتلك المؤسسات ، فضلاً عن تركيز المسلمين في تلك المنطقة من المدينة . مما دفع أحد الباحثين المحدثين من أبناء بيت المقدس إلى القول : إن تلك المعاهد العلمية ، وإن كان بعضها قد اندثر في زمن الممالك وأصبح بيوتاً استولت عليها بعض العائلات المقدسية ، إلا أنها لا تزال آثاراً ناطقة يجدر الاعتناء بها وإصلاحها وإعادة ترميمها إلى حالتها الأولى ^{٣٢} . ولعل هذا ما دفع باحث آخر إلى القول بأن عدد الباقي من مدارس بيت المقدس في عصر سلاطين الممالك بالنسبة لما بقي من نوعها في دمشق وحلب أكثر ، ويعتل ذلك إلى أن أرباب العدوان على الوقوف والحبوس لم يتيسر لهم قبل الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧م أن يستولوا عليها ، وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم ودياراتهم في مدينة بيت المقدس عبرة وعظة ^{٣٣} .

الشروط التي وضعت للطلبة :

أما عن الشروط التي كان يشترطها الواقف في طلبة هذه المدرسة أو الكلية الجامعية بالقدس ، فهي وإن كانت شروط الالتحاق ، فهي كذلك شروط الاستمرار فيها فقد جاء أول شرط هو شرط أخلاقي يجب توافره في طلبة العلم وكان على النحو التالي : " ومن شرط هؤلاء الجماعة المذكورين أن يكون كل واحد منهم من أهل الخير والدين والصلاح " ^{٣٤} . كما تجدر الإشارة إلى أنه لما كانت الموارد المالية للمدرسة محدودة ببيع الوقف ، فقد حددت وثيقة وقف المدرسة التذكزية أعداد الطلبة الذين يتلقون العلم في المدرسة ، كما حددت طلبة المذهب وطلبة

الحديث . وقد كانت دراسة الفقه على المذاهب الأربعة والتفسير ، والحديث هي الدراسات الشائعة في غالبية مدارس العصر المملوكي^{٣٥} . وبالنسبة لعدد طلبة الحديث في مدرسة الأمير سيف الدين تنكز فلم يزد العدد عن عشرين محدثاً ، واشترطت الوثيقة في كل واحد منهم " أن يحفظ في كل يوم من أيام الميعاد حديثاً واحداً من الأحاديث الثابتة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضه على الشيخ بعد فراغ الميعاد " ، وبما أن درس الميعاد أي دروس المواعظ والإرشاد كان يتكرر ثلاث مرات أسبوعياً وكما سبق أن رأينا ، فإنه كان مطلوباً من كل طالب حديث أن يحفظ ثلاثة أحاديث أسبوعياً وبواقع ما لا يقل عن ١٢ حديث شهرياً . أما طلبة الصوفية فلم يزد عددهم في الوثيقة عن ١٥ طالباً ، وتم تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات أو صفوف دراسية ، هم المبتدئون ، والمتوسطون ، والمنتهون ، " يكون واحداً منهم خادماً ، وآخر طباًخاً لهم وعليهم جميعاً أن يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في المسجد العلوي - الملحق بالمدرسة - ويقرأ كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تعالى في الربعة الشريفة ويجتمعون للقراءة بقراءة ما تقدم ذكره ثم يذكرون الله تعالى ويختمون الذكر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات . ثم يقرأ واحد منهم ما تيسر من رسالة الإمام القشيري رضي الله عنه - فالرسالة القشيرية كانت مشهورة في القدس - ويفعلون مثل ذلك بعد صلاة العصر^{٣٦} . وهكذا توضح لنا الوثيقة الطريقة التي كان يشترطها الواقف في دراسة الفقه في مدرسته تلك ، ومواعيد الدراسة التي رآها أفضل لاجتماع طلبة التصوف ، وتقسيمهم إلى ثلاثة فرق أو صفوف دراسية ، أما عن شروط استمرار الطلبة في دراستهم فقد نصت الوثيقة على : " ومن مضت منهم عليه أربع سنين من حين ترتيبه بالمدرسة المذكورة ولم يكمل حفظ كتاب في مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه ويظهر عليه الفقه فيستبدل الناظر على هذا الوقف غيره ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من أهل القدس ويقدم العزب على المتزوج منهم^{٣٧} " .

هذا وتجب الإشارة إلى أن الدراسة في مدارس بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك اختلفت فيما بينها باختلاف المذاهب التي أنشئت لتدريسها ، وباختلاف الهدف الذي أقيمت من أجله المدرسة . حيث كانت هناك مدارس للشافعية ، وأخرى للحنفية والحنابلة والمالكية ، يدرس في كل منها الفقه على المذهب الخاص بها ، ويهتما هنا أن نشير إلى أن اختلاف هذه المدارس مذهبياً . قد أدى إلى تجميع مسائل الخلاف بين تلك المذاهب في دراسات خاصة ، عرفت باسم " علم الخلاف " وقد برع فيها كثير من علماء بيت المقدس وغيرهم في ذلك العصر^{٣٨} .

وبصرف النظر عن اختلاف الدراسة الفقهية في تلك المدارس لاختلاف المذاهب فقد تركزت حول علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، واللغة العربية من نحو وصرف ، فضلا عن تدريس القراءات ، والوعظ الذي عرف باسم درس الميعاد ، والعلوم الرياضية ^{٣٩} .

أما عن مواعيد الدراسة ، فقد حددتها وثائق الوقف بدقة تامة ، حتى أصبحت تقليداً معمولاً به ، فكان اليوم الدراسي ممتداً من طلوع الشمس إلى آذان العصر ، كما كان على المدرس أن يختار الوقت المناسب حسب إمكانيات المكان ، وحسب ظروفه ، خلال اليوم الدراسي ، على أن تقتصر فترة الدراسة الفعلية على ما يقرب من ثلاث ساعات . وإن كانت وثيقة أوقاف الأمير سيف الدين تنكز لم تحدد المدة بالنسبة لطلبة الحديث النبوي الشريف ، إلا أنها حددت الوقت بالنسبة للصوفية عندما قالت : " وعلى جميع هؤلاء الجماعة المذكورين من الشيخ والقارئ والمشتغلين في الحديث أن يجتمعوا كل يوم بعد صلاة الظهر في الإيوان الشرقي من المدرسة المذكورة ويقرأ كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تعالى في الربعة الشريفة " ^{٤٠} ، أي أنها تحدد المدة الزمنية . أما بالنسبة للصوفية فقد اشترطت الوثيقة أن عليهم : " أن يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في المسجد العلوي . ويقرأ كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تعالى في الربعة الشريفة . ثم يذكرون الله تعالى ويختمون الذكر بالصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات . فيقولون اللهم صلى على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد وسلم ، ورضي الله عن أصحاب رسوله أجمعين ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المتقدم ذكره " ^{٤١} . أي أن (يدعو عقب ذلك لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد خلد الله تعالى سلطانه وللواقف المسمى تقبل الله تعالى منه ولذريته المباركة كثرهم الله تعالى ويستغفر الله تعالى لهم ويسأله أن يجعل ثواب ذلك في صحايف الواقف المسمى أحسن الله تعالى إليه . " ^{٤٢} ثم يقرأ واحد منهم ما تيسر من رسالة الإمام القشيري رضي الله عنه ويفعلون مثل ذلك بعد صلاة العصر " أي أن ساعات المدرسة كانت تمتد إلى ما بعد العصر ، فمنها ما هو بين الصباح الباكر ومنتصف النهار ، ومنها ما هو بين الظهر وصلاة المغرب ، وبعدها تعطى فترة للراحة والأكل ، وكثير من الطلبة كانوا يفضلون الحضور عند مدرسيهم بعد صلاة المغرب ، وأثناء الليالي الباردة ^{٤٣} .

أما الإجازات السنوية فكانت شهر رجب وشهر شعبان وشهر رمضان والعشرين من

شوال من كل سنة ، فإنهم يبطلون حضور الدرس في هذه المدة وبعدها يشرعون في حضور الدرس ، ويحضرون في الحادي والعشرين من شوال إلى سلخ ذي القعدة ، ويبطلون الدرس في مستهل ذي الحجة إلى آخر الخامس عشر منه ، ثم يحضرون للدرس في سادس عشر ذي الحجة ويبطلون يوم تاسوعاء وعاشوراء أي يومي التاسع والعاشر من شهر محرم من كل سنة^{٤٤} ، وتؤكد الوثيقة على مدى حرص الواقف على الالتزام بهذه المواعيد بقولها " وتضبط غيبة الفقهاء ممن يعينه الناظر في هذا الوقف لذلك ومن غاب منهم لعذر شرعي سومح في مدة الغيبة في جامكته وجرايته الآتي ذكرهما ومن غاب منهم لغير عذر شرعي نقص من جامكته وجرايته بقدر مدة غيبته " أما طلبة الحديث النبوي الشريف فإن " حكمهم في الغيبة كما ذكر في حق الفقهاء... " ^{٤٥} . كما أن هذا النص يؤكد لنا مدى حرص الواقف وهو الأمير سيف الدين تنكز على جدية الدراسة بأنه اشترط على الناظر على الوقف أن يعين شخصاً أميناً وفي الأرجح أنه كان طالباً في إحدى المجموعات يتولى ضبط حضورها وغياها ، وفي مقابل ذلك ربما رتب له زيادة في معلومه ، وربما سمح لأحدهم بالغيبة ثلاثة أيام كل شهر ، وهذا النوع ما سمته الوثيقة العذر الشرعي الذي قد يكون مرضاً أو شيئاً يستوجب الإجازة ، أما من تغيب من الطلبة بغير عذر فقد كان يتم قطع معلومه من جامكية أي طعام وما يشبهه وراتب نقدي . ونلاحظ من هذا أن الإجازات السنوية كانت تتفق والمناسبات الدينية التي تقام فيها شعائر دينية معينة سواء كانت من الفرض أو السنة ، كما نلاحظ أن وثيقة الوقف هذه قد نصت على السماح لأرباب الوظائف والطلبة بتأدية فريضة الحج على أن يحصلوا على مرتباتهم إذا كان الحج لتأدية الفريضة ، أما إذا كان الحج تطوعاً فيلزم الموظف بأن يستنيب عنه ، أو يقطع معلومة حتى عودته^{٤٦} .

الأوقاف ومدورها

يجب أن نذكر أنه بدون الأوقاف كان لا يمكن أن تقوم للمدرسة التنكزية قائمة في ذلك العصر ، وتؤكد وثيقة الوقف أهمية الأوقاف لتثبيت أركان المدرسة والعمل على استمرار أدائها لرسالتها ، وهذا ما أشار إليه المقرئ صراحة في قوله عن إحدى المدارس " ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت " ^{٤٧} ونحن نقول : لولا ما يتناوله طلبة العلم بها من صوفية ومحدثين ، وموظفين لخربت هذه المدرسة .

ولم يقتصر أثر الأوقاف على التعليم على أنها المورد المالي لهذه المدرسة أو الكلية الجامعية ، بل تعدى الأمر ذلك إلى كافة العملية التعليمية ، وما بالمدرسة من أثاث ، فضلاً

عن أن وثيقة الوقف الخاصة بهذا الأمير كانت بمثابة اللائحة التنفيذية والأساسية للمدرسة ، هذه اللائحة بما تضمنه من أسس تعليمية وتربوية وإدارية كانت على جانب كبير من الأهمية .

ولقد تضمنت الوثيقة ثبنا بالأوقاف والتي جاء ذكرها على النحو التالي ، وهي قرية تدعى عين قنية أو عين قينيا من قضاء رام الله اليوم : " إن الناظر على الوقف عليه أن يستغل الضيعة المذكورة أراضيها بالمزراعة والمفالحة . والمخابرة بما فيه المصلحة المرجحة لجهة الوقف مهما أمكن ذلك " ^{٤٨} . وينبغي أن نذكر أن المفالحة والمزراعة والمخابرة وكذلك المقاسمة ألفاظ مترادفة ، وهي اصطلاحات لزراعة الأرض على شطر مما يخرج منها من المحصول ، وتختلف المخابرة وهي لغة مشتقة من الخبير وهو الفلاح ، عن المقاسمة والمزراعة فقد اعتبر الفقهاء المقاسمة أو المزارعة تكون إذا كان البذر من صاحب الأرض ، على حين يكون البذر من العامل أو الفلاح في المخابرة ، وذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن المزارعة والمخابرة على أساس أن العقد فيها على شئ غير معروف ، لأن العامل يعمل في الأرض من غير أن يدري ما يصيبه ، ومن الفقهاء من أجاز هذه الطرق استناداً إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم عامل أهل خيبر على أرضها ونخلها بشرط مما يخرج منها من ثمر أو زرع ، وفي رواية أخرى أنه عاملهم على أساس " المساقاة " وهي عقد يتضمن معاملة الشخص غيره على شجر أو عنب أو نخل ليتعهده بالسقي والتربية نظير قدر معين من الثمر ، وعلى هذا الأساس تجوز المزارعة تبعاً للمساقاة ، واختار النووي جواز المزارعة والمخابرة على أن يكون البذر من المالك ، وحمل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في النهي عنها على ما إذا اشترط المالك لنفسه ناحية معينة من الأرض وللعامل أو الفلاح الأخرى . كما أجاز أبو يوسف ومحمد ذلك ، لأن فيه توسعة على الناس ومصلحة لهم والذي سار الأمر عليه في عصر المماليك هو أن البذور من الفلاح ^{٤٩} . كما ترد المخابرة على أنها المزارعة والمقاسمة على نسبة معينة من المحصول ^{٥٠} .

والدليل على أن المزارعة والمفالحة كانت سائدة في ذلك العصر ما جاء في الوثيقة من ذكر لها ، لما في ذلك مصلحة للفلاح والمقطع ، ثم يذكر نص الوثيقة : " ويصرف من ريع الوقف المذكور ما يحتاج إليه ذلك من مشترى أبقار وآلات وتقوية فلاح " أو بعبارة أخرى أن المقطع في ذلك النظام كان يزود الفلاح بما يحتاج إليه من آلات وبذور وحيوانات ثم يحدد الواقف نظام استغلال هذه الضيعة بقوله " فلا يؤجر الضيعة المذكورة وأراضيها ولا شئ منها في عقد واحد أكثر من سنتين ولا يستأنف على ذلك العقد - أي يجدد العقد - حتى ينقضي العقد الأول ويعود إلى يد الناظر . ولا يؤجر ذلك من مفلس أو مماتل ولا متشرد ولا متجول ولا

لمن يعلم أنه يستأجره من هذه صفته^{٥١} . وقد جاء في السجل رقم ١٤٢ من سجلات المحكمة الشرعية أن ريع قرية عين قنية التابعة للقدس قد بلغ في أوائل القرن العاشر الهجري ، السادس عشر الميلادي ٢٠٠٠ من الدراهم الفضة سنوياً . وأن الأمير تنكز قد أوقف عدة حوانيت على المدرسة ، وكذلك نصف ريع الحمام المعروف بحمام العين على المدرسة والنصف الآخر على المسجد الأقصى^{٥٢} . وقد جعل تنكز التولية والنظارة على الوقف لنفسه ، ومن بعده لورثته .

التفصيلات

ولقد تقلبت على المدرسة التنكزية عهود كثيرة ، وكانت تستعمل أحياناً لغير غايات الدراسة فعندما زار القدس السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٥هـ / ١٤١٤م فقد سكن بها . وفي عهد السلطان قايتباي أواخر القرن التاسع الهجري ، أي الخامس عشر الميلادي زارها السائح الدومنيكاني فابري وقال إنها كانت ديواناً وسكناً للقضاة ، كما اتخذها ناظر الحرمين الشريفين أي القدس والخليل وشيخ الإسلام مقراً له . ولكن ظاهر من أسماء بعض المدرسين بها في القرنين العاشر والحادي عشر للهجرة ، أي السادس عشر والسابع عشر للميلاد أن التنكزية عادت مدرسة في هذين القرنين ، وأن التدريس استمر بها حتى أواخر القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي ، وبعد ذلك حولها الأتراك إلى محكمة واستمرت كذلك إلى ما بعد نهاية الحكم العثماني في فلسطين سنة ١٣٢٦هـ / ١٩١٧م بقليل وأصبحت الدار تعرف بالمحكمة الشرعية . غير أنها تحولت إلى دار سكن مرة أخرى في زمن الانتداب البريطاني فسكنها مفتي القدس ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى وفي العهد الأخير عادت مدرسة شرعية عندما أقيم فيها المعهد العلمي الإسلامي التابع لوزارة الأوقاف وظل فيها المعهد إلى سنة ١٩٦٩م ، عندما احتلتها قوات الاحتلال الإسرائيلي التي ترابط فيها الآن بحجة أن نوافذها تطل على حائط البراق وحارة اليهود ، كما يسمون حائط البراق بحائط المبكى . وقد قامت السلطات الإسرائيلية بأعمال حفر وتقريب وتنقيب تحت الطابق الأرضي للمدرسة وكثير من المباني المجاورة مما جعلها مهددة بالانهيار . وقد استعملت المنطقة الواقعة تحت التنكزية والعمارات المجاورة كنيساً لليهود^{٥٣} .

المكتبة بها :

لعبت المكتبات في بيت المقدس على عصر سلاطين المماليك دوراً هاماً في الحياة التعليمية ، حيث قدمت المكتبات خدمات مكتبية ممتازة ، مما ساعد على زيادة فرص إتمام التعلم في ذلك العصر ، وكان الاهتمام بالمكتبة في العصر المملوكي امتداداً لما بدأه المسلمون ، من ذلك أن السلطان صلاح الدين الأيوبي عندما فتح مدينة بيت المقدس اهتم بمكتبات قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، حيث زودها بكثير من المصاحف والختمات والربعات ورتب لها قومه لشمول مصالحها^{٥٤} .

كذلك لم يكن الاهتمام قاصراً على مكتبات المسجد الأقصى وغيره من المساجد بل تذكر بعض المراجع أنه لا تكاد مدرسة تخلو من مدارس بيت المقدس في ذلك العصر من خزانة كتب باعتبارها إحدى حواضر العلم آنذاك^{٥٥} .

وتجدر الإشارة إلى أن ظاهرة الاهتمام بالكتب والمكتبات في عصر سلاطين المماليك إنما ترجع إلى كثرة انتشار أسواق الكتب وتجارتها ، فضلاً عن تعظيم كثير من السلاطين وأمراء المماليك للعلم وأهله ، كما أن هذا العصر تميز بالغنى والثروات الضخمة في شطره الأول والتي مكنت الكثيرين من اقتناء الكتب الثمينة والنادرة ، ووقفها على المدارس وغيرها لينتفع بها الطلاب والعلماء في وقت كانت فيه الكتب غالية الثمن لعدم معرفة الطباعة^{٥٦} .

كما تجب الإشارة إلى أن المكتبات في ذلك العصر كانت محور النشاط التعليمي في تلك المؤسسات والتي لم تكن للتعليم فقط بل وللتعلم أيضاً ، وتحصيل العلم بالبحث والدراسة في الكتب نفسها ، والنقل مما تحويه من مادة علمية ثمينة ، وحيث لم تقتصر مهمة المدرس على مجرد الإلقاء والتلقين أو الشرح بل كان عليه أن يسهل على الطلبة الفهم ويحثهم على الاشتغال بالعلم الشريف ، بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون فالأهون ، إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق ، أي إعداد الطلبة وتدريبهم على البحث بأنفسهم^{٥٧} . كذلك كان من اختصاصاته الترغيب في تحصيل العلم والاعتماد على الكتب^{٥٨} وهذا ما أكدته الواقف في وثيقته عندما تحدث عن مؤذن المسجد الملحق بالمدرسة والذي كان في نفس الوقت أميناً للمكتبة بها بأنه كان يتولى إحضار الربعة الشريفة إلى الإيوانين المشار إليهما من المدرسة المذكورة عند اجتماع الجماعة فيها من الفقهاء والمحدثين^{٥٩} وفي نفس الوقت ذكرت أنه جمع بين وظيفته ووظيفة مفرق الأجزاء الكريمة على الجماعة المشار إليهم وجمعها بعد فراغهم من القراءة في الصندوق المعد لها ثم يرفع

الربعة الشريفة . إلى المكان المخصص بها في المدرسة المذكورة ثم يفعل كذلك عند اجتماع الجماعة الصوفية في المسجد العلوي المشار إليه . وكل هذا أي المكان المختص بالكتب ، ومفروق الأجزاء الكريمة ، أي أمين المكتبة أو المناول بها ، والصندوق المختص بوضع الربعة الشريفة فيه أي الـ ١٢٠ جزءاً التي تم تقسيم أجزاء المصحف الثلاثين إليها ، كل هذا يدل دلالة لا شك فيها بوجود مكتبة وبعض من عملوا بها وبعض مهامهم في المدرسة التنكزية في تلك الفترة ، وهو ما جاء ذكره في نص الوقفية (٥٩) .

الاحتياجات والخرافات

أما عن المرتبات والطعام فقد نصت وثيقة الوقف على أن الناظر على الوقف أن يصرف " للمدرس بالمدرسة المذكورة - وهو أستاذ المادة - في كل شهر من الشهور ستين درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحداً من الخبز وإلى المعيد بالمدرسة المشار إليها في كل شهر من الشهور ثلاثين درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام ثلث رطل من الخبز وإلى كل واحد من الفقهاء المنتهين في كل شهر من الشهور عشرين درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز وإلى كل واحد من الفقهاء المتوسطين في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز وإلى كل واحد من الفقهاء المبتدئين في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل واحد من الخبز " أو بعبارة أخرى أنه تم تقسيم طلاب الصوفية وعددهم ١٥ طالباً إلى ثلاث فرق أو صفوف دراسية اختلفوا فيما بينهم من حيث درجتهم العلمية ، ومن حيث ما يصرف لهم من جامكيات أي طعام وراتب شهري . أما شيخ المحدثين أي أستاذ علم الحديث أو مدرس الحديث النبوي الشريف فقد جاء في الوثيقة أن ناظر الوقف كان يصرف له على النحو التالي : وإلى شيخ المحدثين في كل شهر من الشهور أربعين درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحداً من الخبز " أما قارئ الحديث فقد جاء النص : " وإلى قارئ الحديث النبوي على قائله أفضل الصلاة وأتم السلام في كل شهر من الشهور عشرين درهماً فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز " أما طلاب علم الحديث فقد ذكرت الوثيقة أن الناظر على الوقف كان عليه أن يصرف " إلى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز " أما شيخ التصوف أو أستاذ علم التصوف فقد نصت الوثيقة أن يصرف الناظر : " على شيخ الصوفية في كل شهر من الشهور ستين

درهما فضة وثلاث رطل من زيت الزيتون وثلاث رطل من صابون وفي كل يوم من الأيام رطلاً واحداً من الخبز". أما الطلبة من الصوفية فقد قرر الواقف إلى كل واحد منهم: "في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون وسدس رطل صابون ويزاد الخادم والطباخ الآتي ذكرهما على معلوم كل واحد منهما المقدم ذكره في كل شهر من الشهور خمسة دراهم فضة ويصرف إلى كل واحد من الصوفية الخمسة عشر المشار إليهم فيه في كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز. ويطبخ في كل يوم من الأيام بلحم الضأن برسم الصوفية المشار إليهم من المقيمين والواردين ويكون ذلك على جاري عادتهم. ويفرق بالنصيب ويكون نصيب كل منهم قدر أوقية من اللحم قبل الطبخ ويضاف إلى ذلك حلوى تعمل للمذكورين في نيالي الجمع على عادة الصوفية ويفرق عليهم بالنصيب لكل شخص منهم أوقية. ويكون لشيخ الصوفية في ذلك نصيبان^{٦٠}. بما يفيد التوسعة عليهم.

أما موظفو المدرسة المترين بها فقد نصت الوثيقة على أن ناظر الوقف عليه أن: "يصرف الناظر في هذا الوقف إلى قارئ القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلاة الصبح في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز وإلى قيم الطهارة المذكور فيه في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الأيام نصف رطل من الخبز (٦١).

الخوافز أو التوسعة :

كما كانت هناك أيام تتم فيها صرف حوافز على أساتذة المدرسة وطلابها ، وهي ما عرفت في مصطلح ذلك العصر باسم التوسعة . ولم تكن قاصرة على المدرسين وطلابهم بل شملت أيضا العاملين بالمدرسة ، نذكر منها على سبيل المثال ما جاء في الوثيقة من قول : "ويعمل أيضا للمذكورين في المواسم والأعياد من الطعام والحلوى ما يراه الناظر في الوقف ويفرق عليهم بالنصيب ، أي بحسب عدد الأفراد مع مراعاة أن يكون نصيب المدرسين ضعف غيرهم وكما سبقت الإشارة بذلك . وفي موضع آخر من الوثيقة جاء النص التالي : " ويتابع الناظر في الوقف عند ختم قراءة كل واحد من صحيح البخاري ومسلم رضي الله عنهما بمائة درهم من الدراهم المتعامل بها حلوى ويفرقها على الحاضرين من المحدثين وغيرهم على ما يراه" وما تذكره الوثيقة عن عيد الأضحى المبارك سنوياً : ويتابع أيضا في عيد الأضحى في كل سنة رأسين من البقر وكبشين مليحين من الغنم الضأن مما يجري في الأضحى ويضحي

بذلك في أيام التضحية ويفرق اللحم على أهل الوقف المذكور " ٦٢ .

الرعاية الاجتماعية :

ولم يكن دور هذه المدرسة أو الكلية الجامعة قاصراً على التعليم ، بل كان دورها البارز في مجال الرعاية الاجتماعية ، وخير دليل على ذلك ما جاء في الوثيقة من أن لحم الأضحية كان يفرق على " أهل الوقف المذكور وعلى غيرهم من صعاليك - أي فقراء - المسلمين " . وفي موضع آخر توضح الوثيقة أن الصوفية في المدرسة كان من حقهم استضافة عشرة أنفار من الصوفية زوار المدينة لمدة عشرة أيام ، وكان الناظر يصرف " إلى كل واحد من الصوفية المقدم ذكرهم - أي الزائرين - في مدة عشرة أيام من حين ورودهم عليهم في كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز " ويزود الواحد منهم " عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر في كل شهر على عشرة من الواردين ولا يزداد عليهم ويقدم الغرباء من الصوفية والواردين عليهم بعد عتقاء الواقف المسمى أعز الله أنصاره على أهل القدس الشريف . يجري ذلك كذلك على الوجه المشروح في هذا الكتاب على قوم بعد قوم وأنفار بعد أنفار . ومتى تعذر الوقف على العتقاء صرف ذلك صدقة على الفقراء والمساكين المسلمين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " وفي موضع آخر تذكر الوثيقة مدى الرعاية الاجتماعية التي كفلها واقف هذه المدرسة على الجواني والعبيد السود بعد عتقهم ، وتوفير السكنى والإقامة الكريمة المجانية لهم . حيث تم النص على : " ومن اختار من عتقاء الواقف المذكور أحسن الله تعالى إليه أن يكون من جملة الصوفية المقدم ذكرهم بالمعلوم والجرية وسائر ما ذكر لكل واحد من الصوفية المذكورين فيكون في ذلك مقدماً على غيره من المربين بالإجازة ولا يشترط عليه أن يكون من أهل التصوف " ٦٣ .

الرعاية الصحية :

وينبغي الإشارة إلى أن مؤسسي المدارس بوجه عام ، ومنها المدرسة التنكزية لم يهملوا الرعاية الصحية الشاملة للمدرسين والطلبة ، ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة ، سواء كانوا من المقيمين بها أو الواردين عليها من خارجها ، وقد تمثلت هذه الرعاية أول ما تمثلت ، وكما سبق وممر بنا في توفير التهوية الجيدة ، والإضاءة اللازمة ، أو في الصرف الصحي في المدرسة ، وتوفير الماء العذب للشرب أو غير ذلك من الأغراض . ومما لا شك فيه أن الدولة قد تدخلت في ذلك عن طريق المحتسب الذي وضع شروطاً لنظافة المأكل والمشرب ،

وعمليات طهي الطعام ، ومراعاة نظافة أوانيهِ.

والأهم من ذلك ما جرت به العادة في ذلك الزمان في مدينة بيت المقدس من توفير الرعاية الطبية للمدرسة والطلبة والعاملين بالمدارس ، وبخاصة الكبيرة منها ، ومنها التنكزية ، بحيث كان ناظر الوقف يخصص رجلين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان ، والثاني عارف بصناعة الكحل أي أمراض العيون ، على أن يحضر كل منهما كل يوم إلى المدرسة لمباشرة المرضى من القائمين بالمدرسة أو الذين يعملون بها ^{٦٤}.

وليس بمستبعد أن يكون الأمير الوافد قد سمح لهؤلاء جميعاً بالتردد على الحمامين اللذين أنشأهما بالقرب من المدرسة ، وهما حمام الشفا ، وحمام العين والقيام بعمليات الاستحمام والتدليك وإزالة الشعر من أجسادهم ، وغير ذلك أسوة بما كان متبعاً في الحمام الذي سبق وأنشأه صلاح الدين الأيوبي ، وهو حمام البطررك ، وكان يتم إيجاره في اليوم بمبلغ ثلاثة عشر درهماً ، يخصم منها المستأجر ثلاثة دراهم نظير دخول صوفية الخانقاه الصلاحية إلى ذلك الحمام ^{٦٥}.

وأخيراً نحمد الله على ما منحنا من مقدرة على إلقاء بعض الأضواء على واحدة من مدارس بيت المقدس في عصر من أزهى عصور الحضارة العربية ، وهي أثر بالغ الأهمية في المدينة المقدسة ، والتي تعد وثيقتهما إحدى الحجج الشرعية التي تثبت الحق التاريخي للعرب والمسلمين في امتلاك هذه الأرض مهما كانت التحديات التي تواجههم ، وإن التمسك بها والإقامة عليها ، وعدم تركها هو الحق بعينه ، والشرعية ذاتها ، كما أن ذلك يحتم علينا المبادرة إلى رعايتها وترميمها لتبقى على حالتها التي كانت عليها ، إلى أن يأتي اليوم الذي تؤدي فيه وظيفتها مرة أخرى .

والله وحده ولي التوفيق

الحواشي والتعليقات

- (١) مجير الدين الحنبلي "أبو اليمن ت ٩٢٧هـ" : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبع المطبعة الوهبية بالقاهرة . ١٢٨٣هـ . ج ٢ . ص ٥٦١ - ٥٩٦ . علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ١٥٢ .
- (٢) سليمان اسحق عطية : تاريخ التعليم في فلسطين على عهد سلاطين المماليك . رسالة دكتوراه ، بجامعة القاهرة ١٩٥٧م ، ص ٢٣ .
- (٣) السخاوي " شمس الدين محمد بن عبد الرحيم ت ٩١١هـ : " الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، طبع مكتبة القدس بالقاهرة ، ١٣٥٤ - ١٣٥٥هـ ، ج ٤ ، ص ١٢٣ ، علي السيد علي : المرجع السابق نفسه ، والصفحة ذاتها .
- (٤) سليمان اسحق عطية : المرجع السابق ص ٢٦ .
- (٥) انظر الوثيقة رقم ٢٦ وهي خاصة بتعيين برهان الدين الناصري قارئاً للميعاد بالصخرة الشريفة والمسجد الأقصى في كل جمعة أربع مرات أيام الاثنين والثلاثاء والخميس ، راجع كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية ، عمان ، ١٩٨٣ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .
- (٦) النعيمي " عبد القادر بن محمد ت ٩٢٧هـ " الدارس في تاريخ المدارس ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة . ١٩٨٨م ، ج ١ ، ص ١٢٣ .
- (٧) الصفدي " صلاح الدين خليل " : كتاب الوافي بالوفيات ، جمعية المستشرقين الألمانية ، فيسبادن ، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م . الجزء العاشر ، ص ٤٢٠ - ٤٣٥ ، الكتبي " محمد بن شاكر بن أحمد ت ٧٦٤هـ " : فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٢٨٣م ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٨٢ ، المقرئ " تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ : كتاب المقفي الكبير ، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩١م ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ - ٦٢١ . النعيمي : الدارس ، ج ١ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .
- (٨) كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية ، عمان ، ١٩٨٣ ، ج ١ ، ص ١٠٥ - ١٢١ .
- (٩) ابن كثير " الإمام الحافظ عماد الدين أبي الفدا إسماعيل ت ٧٧٤هـ : " البداية والنهاية في التاريخ ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة . ١٩٣٩م ، ج ١٤ ، ص ٤ .
- (١٠) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .
- (١١) Conder : The City of Jerusalem . London 1909 . P. 27 . Richard P - cocke : A description of the east . London 1951 . Vol. I P7 ص ١٣٧ .
- (١٢) راجع في ذلك : مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ - ٣٩١ .

- (١٣) المصدر السابق ، ج ١ والصفحات ذاتها .
- (١٤) ابن دقماق " صارم الدين إبراهيم بن بيدمرت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م " الانتصار لواسطة عقد الأمصار طبع بولاق ، ١٣٠٩ هـ ، ق ١ ، ص ٩٧ ، المقرئزي : الواعظ والاعتبار ، طبع بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ ، حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ج ١ ، ص ١٦٨ .
- (١٥) كامل جميل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، ١٩٨١ م ، ص ١٢٦ - ١٣٨ .
- (١٦) المرجع السابق نفسه ، ص ١٣٨ - ١٤٠ .
- (١٧) ابن تغري بردي " جمال الدين أبو المحاسن ت ٨٧٤ هـ " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبع دار الكتب المصرية ، ١٩٣٩ - ١٩٧٢ م ، ج ١١ ، ص ٢٠٥ .
- (١٨) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٧ .
- (١٩) كامل جميل العسلي : معاهد العلم ، ص ١٩٤ .
- (٢٠) مجير الدين الحنبلي : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٥ - ٣٩٦ ، علي السيد علي : القدس ، ص ١٦٤ .
- (٢١) كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية ج ١ ، ص ١١٣ .
- (٢٢) انظر نص الوثيقة في المرجع السابق ص ١١٥ .
- (٢٣) انظر نص الوثيقة في المرجع السابق ص ١٢١ - ١٢٢ .
- (٢٤) انظر نص الوثيقة في المرجع السابق ص ١٠٩ - ١١٠ .
- (٢٥) انظر نص الوثيقة في المرجع السابق ص ١١٠ .
- (٢٦) المقرئزي : الواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ .
- (٢٧) محمد محمد أمين : الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، القاهرة ، ١٩٨٠ م ، ص ٢٤٢ .
- (٢٨) انظر نص الوثيقة في : وثائق مقدسية تاريخية ، ص ١٠٩ - ١١٠ .
- (٢٩) انظر نص الوثيقة في : وثائق مقدسية تاريخية ، ص ١١٥ - ١١٧ .
- (٣٠) انظر نص الوثيقة في : وثائق مقدسية تاريخية ، ص ١١٧ - ١١٩ .
- (٣١) مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٣٨٥ - ٣٩٨ ، اللقيمي " الشيخ مصطفى اسعد ، سبط العلامة نور الدين علي بن غانم المقدسي ت ١١٧٨ هـ " كتاب لطائف أنس الجليل في تحايف القدس والخليل ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٢٥ تاريخ ، ورقة ٢٣ - ٣٥ .
- (٣٢) الخالدي ، أحمد سامح : المعاهد المصرية ، ص ١٢ .
- (٣٣) كرد علي محمد : خطط الشام ، طبع دمشق ، ١٩٢٥ ، ج ٦ ، ص ١٢٥ .
- (٣٤) كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية ج ١ ، ص ١١٥ .

- (٢٥) محمد محمد أمين : الأوقاف ، ص ٢٤٦ .
- (٢٦) كامل جميل العسلي : نفسه ج ١ ، ص ١١٣ - ١١٤ .
- (٢٧) المرجع السابق : نفسه ، ص ١١٢ .
- (٢٨) سليمان اسحق عطية : نفسه ، ص ٧٢ - ٧٥ .
- (٢٩) الخالدي : أحمد سامح : أهل العلم بين مصر وفلسطين ، القدس ١٩٤٧ ، ص ٨ .
- (٤٠) كامل العسلي : نفسه ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (٤١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١١٥ .
- (٤٢) المرجع السابق نفسه ، ج ١ ، ص ١١٤ .
- (٤٣) مجير الحنبلي : الأنس الجليل ، ج ٢ ، ص ٤٨٦ ، ٥٢٧ ، ٥٥٦ ، كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية ج ١ ، ص ١١٥ ، علي السيد علي : القدس ، ص ١٦٥ .
- (٤٤) محمد محمد أمين : الأوقاف ، ص ٢٥٠ .
- (٤٥) كامل جميل العسلي : نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٤ .
- (٤٦) انظر في ذلك أيضا : محمد محمد أمين : الأوقاف ، ص ٢٥١ .
- (٤٧) المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .
- (٤٨) كامل جميل العسلي : نفسه ج ١ ، ص ١١٩ .
- (٤٩) إبراهيم علي طرخان : النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦ وما بها من مصادر فقهية كثيرة .
- (٥٠) المرجع السابق : نفسه ، ص ٥٠٣ .
- (٥١) كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية ج ١ ، ص ١١٩ .
- (٥٢) كامل جميل العسلي : معاهد العلم في بيت المقدس ، ص ١٢٥ .
- (٥٣) المرجع السابق ، نفسه ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .
- (٥٤) العماد الأصفهاني " أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبي الفرج محمد ت ٥٩٧ هـ " :
الفتح القسي في الفتح القدسي ، القاهرة ، ١٩٠٣ م ، ص ٦٦ ، علي السيد علي : القدس ، ص ١٦٨ .
- (٥٥) كرد علي : نفسه : ج ٦ ، ص ١٩٢ .
- (٥٦) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ١ - ٣٥ .
- (٥٧) السبكي " تاج الدين عبد الوهاب ت ٧٧١ هـ " معيد النعم ومبيد النقم ، دار الكتاب العربي بمصر ، ١٩٤٨ م ، ص ١٠٥ ، عبد اللطيف إبراهيم : دراسات في الكتب ، ص ٣٦ - ٣٧ .
- (٥٨) عبد اللطيف إبراهيم : دراسات ، ص ٣٧ .

- (٥٩) كامل جميل العسلي : نفسه ج ١ ، ص ١١٥ .
 (٦٠) المرجع السابق ، نفسه ج ١ ، ص ١١٦ - ١١٨ .
 (٦١) المرجع السابق ، نفسه ج ١ ، ص ١١٨ .
 (٦٢) المرجع السابق ، نفسه ج ١ ، ص ١١٦ - ١١٧ .
 (٦٣) المرجع السابق ، نفسه ج ١ ، ص ١١٨ - ١٢٠ .
 (٦٤) عبدالغني محمود : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥ م ، ص ١٦٨ .
 (٦٥) كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية ، ج ١ ، ص ٨١ - ١٠١ .
